الثنائيات الضدية واثرها في شعر ابي اسحاق الألبيري

طالب الماجستير عقيل غضبان نوري العامري

جامعة فردوسي مشهد - كلية الآداب والعلوم الانسانية - قسم اللغة العربية وآدابها – إيران

Aqel8988@gmail.com

الاستاذ الدكتور أحمد رضا حيدريان شهري (الكاتب المسؤول)

أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة فردوسي مشهد – إيران

Heidary@um.ac.ir

الدكتورة زهراء نعمة حسن السعدي

أستاذه في قسم اللغة العربية - كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة - النجف الاشرف – العراق

Zahraa.alsaadi@uokufa.edu.iq

Opposite dualities and their impact on the poetry of Abu Ishaq Al-Albiri

Master's student Aqeel Ghadhban Nuri Abdel-Amiri.
Ferdowsi University Mashhad , Faculty of Arts and Human Sciences , Department of Arabic Language and Literature , Iran
Dr. Ahmad Reza Heydrian
Professor in the Department of Arabic Language and Literature , Faculty of Literature , Ferdowsi University Mashhad , Iran
Dr. Zahraa Nehme Hassan Al-Saeedi
professor at the Department of Arabic Language , College of Education for Girls , University of Kufa , Najaf Ashraf , Iraq

الملخّص :

ان مفهوم الثنائيات الضدية من الموضوعات المهمة التي لها صداها في الدراسات البحثية الحديثة فقد سلط عليها الضوء في الدراسات الادبية مما جعل الباحث يلتفت لدراستها وتحديد ابعادها عند الشاعر الزاهد ابي اسحاق الألبيري وهو شاعر اندلسي عاش في القرن الخامس الهجري وتثقف ثقافة عصره التي تركز على الجوانب الدينية بشكل كبير فكان عالما فقيها شاعرا له ديوان شعر اكثره في الزهد وحسب الاطلاع عليه وجد الباحث مجموعه من الثنائيات الضدية التي عبر فيها عن افكاره ووجهات نظره ونقل جوانب من ثقافة عصره في ضوء تناوله لهذه الثنائية المتمثلة بالانا والاخر والدنيا والاخرة والعلم والجهل كثنائيات رئيسية تفرعت منها ثنائيات جزئية ناقش فيها الألبيري قضايا كثيرة تتعلق بالإنسان وحياته ونجاته وقوته وأخرته فقد رسم في ضوء هذه الثنائيات خارطة الطريق للإنسان الذي يسعى نحو النجاة .

الكلمات المفتاحية : الثنائيات الضدية – شعر الزهد – أبو إسحاق الألبيري – العصر الأندلسي .

Abstract:

The concept of antibody dichotomies is one of the important topics that resonate in modern research studies. It has shed light on it in literary studies, which made the researcher turn to studying them and determining their dimensions with the ascetic poet Abu Ishaq Al-Alberi, an Andalusian poet who lived in the fifth century AH and educated the culture of his time that focused on religious aspects Significantly, he was a scholar, jurist and poet, who had a collection of poetry, most of which was in asceticism, and according to his knowledge, the researcher found a group of oppositional dualities in which he expressed his ideas and views and transferred aspects of the culture of his time in light of his handling of this duality of ego, the other, the world and the hereafter, knowledge and ignorance as the main binaries from which they branched out. Partial, in which Al-Alberi discussed many issues related to man, his life, his survival, his strength and his afterlife. In light of these dualities, he drew a road map for the person who strives for salvation.

Key words : Dichotomies , the poetry of asceticism , the poetry of Abu Ishaq Al-Albrian , the Andalusian era .

ثنائية العلم والجهل

المدخل: مكانة العلم في المجتمع الأندلسي:

امتدَّ العلم في التاريخ الإسلامي منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على رسول الله (ﷺ) ثم تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وحكم الخلفاء الراشدين، مروراً بالدولة الأموية، فالدولة العباسية، بما تضمنته من إمارات ودول، ثم سيطرة الدولة العثمانية التي تعتبر آخر خلافة إسلامية على امتداد رقعة جغرافية واسعة.

ومنذ فترةٍ باكرةٍ من حياة الأندلس الإسلامية، في هذه التي أُسِّست على تقوى من الله ورضوان، هنا وهناك من أرض الجزيرة حيث التحمت تحت سقوفها العبادة والمعرفة وتكرس حلقات المعرفة الوعي بهذه وتلك في النفوس والعقول، ولاستثمار هذا التلاحم بين العبادة والمعرفة في التمكين للثقافة المنبثقة عنهما لدى المخاطب كان من الضروري إيجاد (نظام) تعليمي يتوسَّل بمختلف الآليات في إنجاز الفعل التربوي وتحقيق مقاصده وغاياته، وعرفت حواضر الأندلس من هذه المساجد جوامع رحبة الأبهاء وسيعة الأنحاء، واعتبر جامع قرطبة واسطة عقدها، كما انبثقت حواضر أُخرى، مثل غرناطة، مالقة، أشبيلية، بلنسية، التي أسهمت في الحركة العلمية فيها(١).

وقد تخّرج الكثير من العلماء من أروقتها، جمعهم ابن الفرضي في كتابه: (تاريخ علماء الأندلس)، ومن ضمنهم الفقيه العالم الزاهد، ابو إسحاق الألبيري، الذي عُرف بورعه، وتقواه، وعلمه، إضافة الى شعره، الذي جسَّد فيه أفكاره وعلومه.

وقد ورد العلم والحث عليه في النصوص القرآنية كثيراً، منها قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (٢)، ومنها قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٣)، وقد عبّر القرآن الكريم عن العلم بجعله نور، كما في الآية الشريفة قوله ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(٤).

والعلم قد يكون وبالاً على صاحبه، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ : (**إنّ منَ العلمِ جَهلاً**) (٥)، وما أروع كلام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ؑ حينما قال: (**رُبَّ عالِمٍ قَد قَتَلَهُ جَهلُهُ، وعِلمُهُ مَعَهُ لا يَنفَعُهُ**) (٦).

توطئة:

العلم لغةً: يقول الفراهيدي: ((علم :علم يعلم علما، نقيض جهل. ورجل علامة، وعلام، وعليم، فإن أنكروا العليم فإن الله يحكي عن يوسف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٧) ، وأدخلت الهاء في علامة للتوكيد، وما علمت بخبرك، أي: ما شعرت به .وأعلمته بكذا، أي: أشعرته وعلمته تعليما .والله العالم العليم العلام .والاعلم : الذي انشقت شفته العليا. وقوم علم وقد علم علماً)) (٨).

أمّا العلم إصطلاحاً: فهو ((الإدراك الحاصل بالدليل، الشامل لليقين الجازم والظن الغالب، وما بينهما من درجات ومراتب)) (٩)،أمّا الجابلقي فيقول في قواعده: ((العلم هو الاعتقاد الراجح الأعم من العلم و الظن)) (١٠).

أمّا الجهل لغةً: قال الفراهيدي: ((الجهلُ :نقيض العِلْم تقول :جَهِلَ فلانٌ حقّه، وجَهِلَ عليّ، وجهل بهذا الأمر .والجَهالةُ :أن تفعلَ فِعلاً بغير عِلْمٍ)) (١١).

أمّا الجهل اصطلاحاً: فهو ضدّ العلم، إذ يقول احمد مطلوب : ((فأما الجهل بمكان الإساءة فلا تعدمه ، فلست تملك إذن من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته ورى ، وقلب إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه ولا يهتدى للذى تهديه فانت رام معه فى غير مرمى ، معنّ نفسك فى غير جدوى)) (١٢).

وقد ورد في القرآن الكريم عن الجهل قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٣)، وفي الخبر ورد : (**من استجهل مؤمنا فعليه إثمه**) (١٤)، وورد في الحديث: (**خلق الله الجهل من البحر الاجاج ظلمانيا فقال له أدبر فأدبر ثم قال له أقبل فلم يقبل، فقال له استكبرت فلعنه**) (١٥).

ويجد الباحث في ديوان (**ابي إسحاق الألبيري الأندلسي**) ثنائيات العلم والجهل بشكل واضح وجلي، التي عبّر بها الشاعر الألبيري عن روحيته المتشائمة، أو مثالياته

القولية، التي تحرّك الكوامن، ويدخل بها الى أشغاف القلب، ممّا يجعل المتلقي يستشعر بحرارة الشاعر المتحمس.

إذ كان الألبيري من خلال ثنائياته الشعرية يبيّن الوجه القاتم المضطرب الذي عاشته بلاد الأندلس أبّان تلكم الحقبة، لما شهدته من صراعات سياسية، وكذا يبيّن الوجه الآخر المشرق الوضّاء المتمثل بالثقافة والأدب في تلكم الحضارة، الذي يُعدّ شعاع ممتد للحضارة الأسلامية وثقافتها.

فقد وظّفه الألبيري في نصوص كثيرة من شعره، فتارة يبيّن قيمة المرء من خلال علمه، وأخرى كون حامله مُطاع ذو هيبة، وأيضاً كونه إحدى الثلاث التي تنفع صاحبها بعد الممات(١٦)، كذلك بيّن أنّ العلم قد يكون وبالاً على صاحبه لو صاحبه الرياء والسمعة والشهرة، وهذا ما وجده الباحث في الشواهد الآتية:

فمن الشواهد التي وظّف فيها الألبيري تلكم الثنائية ما قاله في ديوانه، في نداءه لأبي بكر(١٧):

إلى عِلـــمٍ تَكـــونُ بـــهِ إمامـــاً مُطاعـــاً إن نَهيـــتَ وإن أمَرتَـــا
يَنالُـــك نفعُـــهُ مادُمـــتَ حَيّـــاً ويَبقـــى ذُخـــرهُ لـــكَ إن ذَهبتَـــا(١٨)

إستعمل الشاعر فن البديع في هذين البيتين، من جعل أحد الضدين وهو (العلم) محلاً ومحوراً لكلامه، فوصف أثر العلم الذي به يَملِك الأرض، وبه يكون مُطاعاً إماماً يُقتدى بعلمه(١٩).

فذكر الألبيري في هذين البيتين العلم والمتصف به، وأنّه مُطاعاً مُهاباً، إن أمر وإن نهى، وأنّ العلم يهدي الى سبيل الحقّ إن ضلّ.

وكذا قوله في توظيفه للعلم، وجعله الأساس في مخافة الله حقّاً، وليس في الرئاسة وحبّ الدنيا:

فَـرأسُ العِلـمِ تَقـوى الله حَقّـاً وَلَـيس بـأن يُقـال: لقـد رَأسـتا
وَضـافي ثوبـكَ الإحسـانُ لا أن تُـرى ثَـوبَ الإسـاءةِ قـد لبِسـتا
إذا مـالَم يُفـدكَ العِلـمُ خَـيراً فَخـيرٌ منـهُ أن لـو قَـد جَهِـلتا

وَإن ألقــاكَ فِهمُــكَ في مهـــــاوٍ فليتَــكَ ثُــمَّ ليتَــكَ مافَهِـــــــمتا
سَــتَجني مــن ثِمــارِ العَجــزِ جَهــلاً وَتَصــغُرُ في العُيُــونِ إذا كَبُرتـــا
وَتَفقُــدُ إن جَهلـــتَ وأنــتَ بــاقٍ وَتوجَدُ إن عَلِمتَ وَقد فَقدتا[٢٠]

يجد الباحث في هذا النصّ الشعري مدى تأثّر الكاتب بالنصوص الدينية، القرآنية منها والروائية، وحسن توظيفه لها، فجاءت هذه النصوص متفاعلة مع بعضها وممتزجة، مؤدية الى المعنى الدلالي الذي أراده المؤلف في التعبير عن مدى أهمية العلم وأثره لدى حامله، هذا من جانب، ومن جانب آخر تشير الى امتلاك هذا الأديب ثروة لغوية وقدرة عالية في التصرّف في التراكيب والألفاظ معنى وأسلوباً.

ففي البيت الأول يجعل العلم كل العلم هو مخافة الله تعالى، وهو من المرجعيات الثقافية الدينية غير المباشرة، بواسطة الإقتباس من النصوص الدينية، ممّا يجعلها أدلة حتمية تؤيد الفكرة الواردة في النص[٢١]، ففيه إشارة الى قول الله ﷻ: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[٢٢]، وكذا قوله (ﷺ) : **(رأس الحكمة مخافة الله)**[٢٣].

كما أشار في بقية النصّ الى جعل العلم مصدراً للإحسان الى نفسه أولاً، والى الناس ثانياً، لا أن يكون مصدراً للإساءة، التي ستجلب التعاسة له في الدارين، وخيرٌ منه الجهل إن لم يفده، خصوصاً إن القاه في مهاوي الأفكار، الذي سيجعله صغيراً في العيون وإن كَبُر، فأما الذى يحس بالنقص من نفسه ويعلم أنّه قد علم علماً أوتيه من سواه، فأنت منه فى راحة، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره، وأن يتكلّف ما ليس بأهل له[٢٤].

إنَّ المتصفح لديوان الألبيري يلاحظ أنّه تعامل مع ثنائية العلم والجهل كأساس لبناء حياة سليمة قائمة على مرضاة الله تعالى، بالتقرب منه، والعمل على وعي وإدراك لحقيقة ما يجري حوله، وهناك مجموعة من الثنائيات التي وظّفها الشاعر لتحقيق هذه الغاية، مستنداً لمرجعياته الثقافية، منها:

١: الحياة والموت:

الحياة لغةً: ((حيا :الحَيَاةُ: نَقِيضُ الْمَوْتِ، كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ بِالْوَاوِ لِيُعْلَمَ أَن الْوَاوَ بَعْدَ الْيَاءِ فِي حَدِّ الْجَمْعِ، وَقِيلَ: عَلَى تَفْخِيمِ الأَلف، وَحَكَى ابْنُ جِنِّي عَنْ قُطْرُب: أَن

أَهل الْيَمَنِ يَقُولُونَ الحَيَوْةُ، بِوَاوٍ قَبْلَهَا فَتحَةٌ، فَهَذِهِ الْوَاوُ بَدَلٌ مِنَ أَلف حياةٍ وَلَيْسَتْ بِلَام الْفِعْلِ مِنْ حَيِوْتُ)) (٢٥).

وتعامل الشاعر مع الحياة من وجهة نظر إسلامية: فإنَّه يُعلّم القرآن الناس أنّ الغاية من الحياة تقوم على عبادة الله بالإيمان وفعل الخير، والعمل الصالح، ويتحدّد في ضوئها مسار الإنسان، وتتفجّر طاقاتُه، وتتثبّت غايته أن تكون نظرةً كريمةً راقيةً تعرف للإنسانية قدرها(٢٦).

والحياة مستنداً من مفهوم الصوفية: إذ هي ((عبارةً عن تجلّي النفس، و تنورها بالأنوار الإلهية)) (٢٧).

أمّا الموت لغةً: ((المَوْتُ خَلْقٌ مِنْ خَلق اللهِ تَعَالَى. غَيْرُهُ: المَوْتُ والمَوَتانُ ضِدُّ الْحَيَاةِ.))(٢٨).

والموت إصطلاحاً: وكما قال الغزّالي: ((وَمَعْنَى مُفَارَقَتِهَا لِلْجَسَدِ انْقِطَاعُ تَصَرُّفِهَا عَنِ الْجَسَدِ بِخُرُوجِ الْجَسَدِ عَنْ طَاعَتِهَا)) (٢٩).

والموت والحياة وردا كثيراً في القرآن الكريم، كقوله ﷻ: (يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)(٣٠) ، وقوله ﷻ:(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً)(٣١)، وقوله ﷻ:(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ)(٣٢).

و الموت كما استشفه الشاعر من الصوفية: إذ هو ((الحجاب عن أنوار المكاشفات و التجلّي و قد سبق في لفظ الحياة في فصل الناقص)) (٣٣).

ومن الشواهد التي وظّف فيها الألبيري ثنائية الحياة والموت في ديوانه في مواضع متعددة، منها قوله في مطلع ديوانه:

تَفتُّ فؤادك الأيام فَتّا ... وتنحت جسمه الساعاتُ نَحتا

وتدعوك المنون دعاء صدق ... ألا ياصاح : أنت أريد أنتا

أراك تحب عرساً ذات غدرٍ ... أبت طلاقها ألأكياس بتّا(٣٤)

وكذا قوله عند وصفه بأنَّ الدنيا دار فناءٍ لا بقاء، مستعملاً الثنائية الضديّة بين الحياة والموت:

وتَشهدُ كلَّ يومٍ دَفنَ خِلٍ ... كأنّك لا تُراد بما شَهِدتا

وَلم تُخلَـــق لتَعمُرهـــا ولَكـــن لِتَعبُرهـــا فَجُـد لِمـــا خُلِقتـــا[٣٥]

يجد الباحث في المقاطع الشعرية التي ذكرها الاديب الالبيري في ديوانه تتصف بذكر ثنائيات الموت والحياة، ففي الأول منها وصف ما تفعله الأيام بفؤاد بني آدم، وكيف أنّها تنحت جسمه، في إشارة منه الى ماتفعله السنون بالانسان عندما يصل لمرحلة الشيخوخة أو الكهولة، وأنَّ نهاية المطاف هي الموت المحتوم، صورّها المنشئ من خلال خلق صورة تشبيهية ضمنية قائمة على الإفادة من الآية الكريمة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [٣٦]، وكون الإستشهاد بذلك النصّ إعتمده كشهادة ودليل يؤكد حتمية الفكرة الواردة في شعره[٣٧].

وكذلك في المقطع الثاني الذي أورده الباحث، فقد رسم الشاعر صورة الموت المحتوم بمثال حسيّ يدركه أيُّ عاقل، من خلال مايراه من دفن الأخلّاء، الذي لم يبقِ صديق، ولا حبيب، ولا صغير، ولا كبير، من خلال توظيف الإقتباس القرآني غير المباشر للآية الكريمة: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣٨]، ممّا جعل النصّ ممتزجاً ومؤدياً ومعبراً عن الفكرة التي أراد إيصالها للمتلقي، هذا من جانب، ومن جانب آخر يشير الى إمتلاك الكاتب ثروة لغوية، ومقدرة عالية في التصرف في التراكيب والألفاظ معنى وأسلوباً[٣٩].

وهكذا المقطع الآخر الذي أظهر فيه الألبيري مقدرته اللغوية في التعامل مع النصّ القرآني، بطريقة إشارية محوّرة، إذ صاغ بعضاً من الألفاظ القرآنية التي وردت بإسلوبه، فنراه قدّم وأخّر لتلائم الوزن والقافية لقصيدته[٤٠]، من خلال الإقتباس من الآية الكريمة: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ [٤١].

الجدير بالذكر، إنَّ المصنف قد تأثّر بالنصوص القرآنية بصورة عامة، فجعل كثيراً من مواضع ديوانيه إقتباسات من تلكم النصوص، تارة بالإشارة، وأخرى بالتلميح، ممّا يشير الى القيمة المعرفية للألبيري بوجه خاص، والأدباء الأندلس في ذلك القرن بوجه عام.

ومن الملاحظ، انّ الموت ليس هو المحطة الأخيرة التي يصل إليها الإنسان، بل هو عملية إنتقال من عالم الدنيا لعالم الآخرة، التي عبّر عنها القرآن الكريم إنَّها هي الحياة

الحقيقية: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[٤٢]، وكما قال القرطبي: ((الموت ليس بعدَم مَحض ولا فناء صرف؛ وإنَّما انقطاع تعلُّق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدُّل حال، وانتقال من دار إلى دار)) [٤٣].

٢: الغنى والفقر:

الغنيُّ اللغةً: ((هُوَ الَّذي لَا يَحتاجُ إِلَى أَحد فِي شيءٍ وكلُّ أَحَد مُحتاجٌ إِلَيْه، وَهَذَا هُوَ الغنى المُطْلَق وَلَا يُشارك اللَّهَ تَعَالَى فِيه غيرُهُ. ومِنْ أَسمائه المُغْني، سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَهُوَ الَّذي يُغني مَنْ يشاءُ مِنْ عِباده. ابْنُ سِيدَهْ: الغِنى، مقصورٌ، ضدُّ الفَقْر، فَإِذَا فُتح مُدَّ)) [٤٤].

فقد ورد في القرآن الكريم لفظ الغني في أكثر من آية كريمة، كقوله ﷻ: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾،وقوله ﷻ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [٤٥]، وقوله ﷻ: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [٤٦].

أمّا الفقر لغةً: ((الفَقْر والفُقْر :ضدُّ الغنى، مِثْلُ الضَّعْف والضُّعْف. اللَّيْثُ :والفُقْر لُغَةٌ رَديئَةٌ؛ ابْنُ سِيدَهْ: وقَدْرُ ذَلكَ أَن يَكُونَ لَهُ مَا يَكْفي عيالَه، ورَجُلٌ فَقيرٌ مِنَ الْمَال، وَقَدْ فَقُرَ، فَهُوَ فَقير، وَالْجَمْعُ فُقَراءُ، والأُنثى فَقيرةٌ مِنْ نِسْوَةٍ فَقَائر؛ وَحَكَى اللِّحْيَانيُّ: نِسْوَةٌ فُقَراءُ؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَلَا أَدري كَيْفَ هَذَا، قَالَ: وعِنْدي أَن قَائلَ هَذَا مِنَ الْعَرَبِ لَمْ يَعْتدّ بهَاء التأْنيث فكأَنه إِنما جَمَعَ فَقيرًا، قَالَ: وَنَظيرُهُ نِسْوَةٌ فُقَهاءُ. ابْنُ السِّكِّيت :الفَقيرُ الَّذي لَهُ بُلْغَةٌ مِنَ الْعَيْشِ)) [٤٧].

وورد في القرآن الكريم مصطلح الفقير في أكثر من آية، كقوله ﷻ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [٤٨]،وقوله ﷻ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [٤٩]،وقوله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [٥٠].

ومن الشواهد التي ذكر الألبيري في ديوانه، موظّفاً الثنائية الضدّية بين الغنى والفقر؛ لبثّ أفكاره، ما يراه من قيمة العلم ورفع لواءه، وأنَّه هو الغنى الحقيقي، وأنَّ الجهل هو الفقر الحقيقي:

ولا تَحفَــلْ بمالِــكَ وَالــهَ عنــهُ ... فَلَــيسَ المــالُ إِلّــا مــا علمتــا

وَمـــا يُغنِيـــك تَشـــييدُ المبـــاني إذا بالجهـــلِ نَفسَـــك قـــد هَدمتـــا
جَعلتَ المالَ فوقَ العلمِ جَـــهلاً لَعَمـــرُكَ في القضـــيةِ مـــا عَـــدلتا
لأن رَفـــعَ الغـــنيُّ لِـــواءَ مَـــالٍ لأنـــتَ لـــواءَ عِلمِـــكَ قـــد رَفعـــتا
وَإن جلسَ الغـــنيُّ على الحَشايا لأنتَ على الكواكبِ قد جَلستـــا
وَإن رَكـــــبَ الجيـــاد مُســـومّاتٍ لأنتَ مَناهج التقوى رَكِـــبتا[٥١]

لقد اتخذ الكاتب في هذه المقطوعة الشعرية صورة للمقارنة بين من يعدَّه الناس غنياً بما يملك من أموال، وحواشي، وجيادٍ مسوَّماتٍ، وبين من هو الغني الحقيقي بما يملك من عِلمٍ ينفع به نفسه، وينتفع به غيره، لتشجيع الناس على التعلم، وبيان عزوفهم عنه، بسبب نظرتهم للمظاهر الفاتنة.

فعبّر الأديب بإسلوب الكناية من خلال تلك المقطوعة، فذكر في المقارنة الأولى من أنّ غنيَّ المال إن رفع لواء ماله، كناية عن مدى ملكه، فارفع أنتّ أيُّها العالم لواء عِلمك، الذي به تزدهر الأُمَم، وبه تبنى الحضارات، وتشيّد المعالم، ويقارن مرة ثانية فيصف أنَّ الغني بماله وإن جلس على الأرآئك والديباج، فإنَّك أيُّها العَالِم قد جلست بين الكواكب، كناية عن وصول علمه لأصقاع المعمورة، وهكذا مقارنته الثالثة من ركوب الغني بماله على الخيول المسوَّمة الانيقة الفارهة، وبين ركوب العالِم مناهج التقوى؛ لأن العلم غايته التكامل نحو العُلى وتحقيق الغاية المنشودة التي لأجلها خُلِقَ الإنسان، موظّفاً بذلك الحديث المروي عن أمير المؤمنين علياً عليه السلام: (الملوك حكام على الناس، والعلم حاكم عليهم، وحسبك من العلم أن تخشى الله، وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك) [٥٢]، فجمع في طيّات كلامه مضمون الرسالة التي أراد إيصالها للمتلقي، لبيان أهمية العلم والتعلم، وأشار أيضاً الى ذلك من خلال رصف تلكم المعاني، بصورة فنية متناسقة، حتَّى أنَّ البيان لا يستطيع وصف معانيه.

فأراد المنشئ في قصيدته أن يوصل للمتلقي الأخذ من الدنيا بما يناسب وكفافه منها، وأيُّ فضلة منها – إشارة الى الزهد – ستسأل عنه، ولكن أيَّ سوال، إشارة الى الحديث الشريف المروي عن النبي (ﷺ): (حلالها حساب و حرامها عقاب) [٥٣].

فعبّر الأديب الألبيري في أبياته تلك – وهذا ما يُلحظ في ديوانه – عن الزهد في هذه الدنيا، والقناعة بالميسور، وعدم الإكتراث بزينة الدنيا وزبرجها، والإهتمام كلَّ الإهتمام بالعلم، الذي هو الغنى الحقيقي، وبه يكونُ الإنسانُ إنساناً.

٣: الطاعة والمعصية:

الطاعة لغةً: ((أَطاعَ أَصلها أَطْوَعَ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ زَائِدَةٌ، فإن قَالَ قَائِلٌ: إِنّ السِّينَ عِوَضٌ لَيْسَتْ بِزَائِدَةٍ، قِيلَ: إِنها وإِن كَانَتْ عِوَضًا مِنْ حَرَكَةِ الْوَاوِ فَهِيَ زَائِدَةٌ لأَنها لَمْ تَكُنْ عِوَضًا مِنْ حَرْفٍ قَدْ ذَهَبَ كَمَا تَكُونُ الْهَمْزَةُ فِي عَطاء وَنَحْوِهِ؛ قَالَ ابْنُ جِنِّي: وَتَعَقَّبَ أَبو الْعَبَّاسِ عَلَى سِيبَوَيْهِ هَذَا الْقَوْلَ فَقَالَ: إِنما يُعَوَّضُ مِنَ الشَّيْءِ إِذا فُقِدَ وَذَهَبَ، فأَما إِذا كَانَ مَوْجُودًا فِي اللَّفْظِ فَلَا وَجْهَ لِلتَّعْوِيضِ مِنْهُ، وَحَرَكَةُ الْعَيْنِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْوَاوِ قَدْ نُقِلَتْ إِلى الطاء التي هي الْفَاءِ، وَلَمْ تُعْدَمْ وإِنما نُقِلَتْ فَلَا وَجْهَ لِلتَّعْوِيضِ مِنْ شَيْءٍ مَوْجُودٍ غَيْرِ مَفْقُودٍ.)) (٥٤).

أمّا الطاعة إصطلاحاً: ((طاع يطاع و أطاع: لان و انقاد، و أطاعه إطاعة، و انطاع له كذلك، و قد طاع له يطوع إذا انقاد له، فاذا مضى لأمره فقد أطاعه، فاذا وافقه فقد طاوعه، الطاعة :اسم من أطاعه طاعة)) (٥٥).

وردت كلمة (الطاعة) في القرآن الكريم في أكثر من آية، على سبيل المثال قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٥٦)،وكذلك قوله ﷻ: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ ﴾ (٥٧)، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (٥٨).

أمّا المعصية لغةً: ((من العصيان، والعصيانُ :خلافُ الطَّاعَة .عَصى العبدُ رَبَّهُ إذا خالَف أَمْرَه، وَعَصَى فُلَانٌ أَميرَه يَعْصِيه عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيَةً إِذا لَمْ يُطِعْهُ، فَهُوَ عاصٍ وعَصِيٌّ.)) (٥٩).

وأمّا المعصية إصطلاحاً: فكما قال احمد مطلوب(٦٠) : وهو أنَّ الأمر بالطاعة هو النهي عن المعصية، مثل أطعني ولاتعصني، كما ورد في القرآن الكريم، في قوله ﷻ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ (٦١).

ومن الشواهد التي ذكرت المعصية في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (٦٢)، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ (٦٣)، وكذا قوله ﷻ: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٤).

ومن الشواهد التي ذكرها الألبيري في ديوانه، موظّفاً ثنائية المغفرة والذنب، ماقاله في توبيخ النفس لكثرة ذنوبها:

وَمَـن لَـكَ بالأمـانِ وأنـتَ عَبـدٌ ... أُمِـرتَ فَمـا أتَيتَ وَلا أَطَعتـا

ثَقُلتَ مِن الذُنوبِ وَلستَ تَخشَى ... لِجهلِـكَ أن تَـخِفَّ إذا وُزِنتـا

وَتُشفِقُ للمُصِرِّ على المَعـاصي ... وَتَرحَمُـهُ ونَفسَـكَ مـا رَحِـمتا

رَجعتَ القَهقَرى وخَبَطتَ عَشوا ... لَعَمرُك لو وَصَلتَ لَما رجَعتـا(٦٥)

نلتمس في هذا النصّ، من خلال السياق التركيبي المتقوّم بالزجر، الذي وظّفه الشاعر الألبيري، لأجل إيصال رسالته للمتلقي من خلاله.

فمن ضوء البيت الأول يصف حال الذي ينصح الناس، وهو ناسٍ لنفسه، فلم يأتمر ولم ينه نفسه عن غيها، ومع ذلك يُشعر نفسه بالأمان الموهوم، مرمّماً المعنى من ضوء سياق البيت الآخر، الذي يوصف ثِقل ذنوبه بسبب جهله، فيكن ناصحاً مشفقاً على المصرّ على المعاصي، ناسياً نفسه، غير راحمٍ لها، وهذا ما قاله في البيت التالي، الذي يتمم الوصف بالبيت الذي يليه، وكيف أنّه يتخبط خبط عشواء، وبافعاله التي ارجعته للوراء، مقتبساً من الشعر العربي القديم، وهو قول الشاعر زهير بن ابي سلمى(٦٦):

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ(٦٧)

وكذا ضمّن المثل العربي: (يَخْبِط خَبْطَ عَشْوَاء) (٦٨)، أيّ الذي لم يَتَعَمَّدْهُ ، وأصله من النَّاقَةِ العَشْواءِ؛ لأنَّها لا تُبْصِر ما أمامَها، تَخْبِطُ بيدها، ولا تتعهَّدُ مَواضعَ أخْفافِها، فيكون رجوعه للوراء نتيجة لجهله، وتراكم ذنوبه، وسوء عاقبته.

وكذا ما قاله في ديوانه في ذكره للمعاصي، وما تفعل بالمنزل وساكنيه، وتجعلهم قاعاً صفصفاً:

إنّ المَعاصي لا تُقيمُ بِمَـــــنزِلٍ إلّــا لِتَجعَــلَ منــهُ قاعــاً صفصــفاً
ولَو أنّني داويــــتُ مَعطَبُ دائِها بِمَراهِمِ التّقوى لَوافَقَتِ الشّفـــــا
ولَعِفــتُ موردُهــا المَشُــوبَ بِرَنقِهــا وَغَسَلتُ رَينَ القَلبِ في عيّنِ الصفا (٦٩)

إذ نسج الأديب بُنية الشرط الحاضرة في النصّ المتقدم بين جملة فعل الشرط، وجملة جواب الشرط، مشكّلاً بذلك الفضاء الدلالي للنصّ، إذ أسهمت تلكم البنى التركيبية الشرطية في خلق سياق معبّر عن الحالة الشعورية التي وظّفها الألبيري لخدمة النصّ، لأجل إيصال فكرته للمتلقي بصورة اكثر انسيابية.

فيجد الباحث في النصّ اعلاه أنّ الذنوب والمعاصي تجعل المنزل قاعاً صفصفاً، مقتبساً ذلك المعنى من الآية الكريمة: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ (٧٠)، إقتباساً قرآنياً غير مباشر، بما ويتلائم والسياق الشعري، التي تومي الى حست التوظيف من الأديب، وبراعته في استعمال وانتقاء المفردات القرآنية، وتوظيفها في النصّ الشعري، التي تمنح النصّ قوّة وبعداً تواصلياً، وتكثيفاً معنوياً، يزيد ثراء النصّ، ويوسّع افقه(٧١).

ممّا يجعل المتلقي متفاجئاً بما تضفيه على النصّ من بُعد إيقاعي مميز، فضلاً عن الجانب الأهم، المتولّد من تلكم الثنائيات المتضادة، ممّا يحفز المتلقي على إنعام النظر فيهما، فيتحقق بذلك فهم المعنى، مشكّلاً بؤرة المفاجأة الأُسلوبية، وسرُّ الجمال الكامن في بنية النصّ الخفية(٧٢).

٤: الخير والشر:

الخير لغةً: ((الخَيْرُ :ضِدُّ الشَّرِّ، وَجَمْعُهُ خُيور، وَفُلَانَةُ الخَيْرَةُ مِنَ المرأتين، وَهِيَ الخَيْرَةُ والخِيَرَةُ والخُوْرَى والخِيرى .وخارَهُ عَلَى صَاحِبِهِ خَيْراً وخِيَرَةً وخَيَّرَهُ: فَضَّلَه؛ وَرَجُلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ، مُشَدَّدٌ وَمُخَفَّفٌ، وامرأَة خَيْرَةٌ وخَيِّرَةٌ، وَالْجَمْعُ أَخْيارٌ وخِيَارٌ،إنه لَمَّا وُصِفَ بِهِ؛ وَقِيلَ: فُلَانٌ خَيْرٌ، أَشبه الصِّفَاتِ فأدخلوا فِيهِ الْهَاءَ لِلْمُؤَنَّثِ وَلَمْ يُرِيدُوا بِهِ أَفعل)) (٧٣).

أمّا فعل الخير إصطلاحاً: فكما عرّفه الجرجاني : ((هو عقد القلب على فعل شيء قبل ان يفعل من خير أو شر)) (٧٤).

وقد وردت كلمة الخير في القرآن الكريم كثيراً، منها قوله ﷻ: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (٧٥)، وقوله ﷻ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٦)، وقوله ﷻ : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٧٧).

والشرُّ لغةً: ((شر : الشَّرُّ: السَّوءُ، والفعل للرَّجلِ الشِّرِّير، والمصدر: الشَّرارة، والفعل :شرّ يشرُّ شرًّا وشرارةً. وقومٌ أشرارٌ خِلافُ الأخبار. والشَّرُّ: بسطُك الشيء في الشَّمس من الثِّياب وغيرها.)) (٧٨).

أمّا فعل الشرّ إصطلاحاً : فكما عرّفه الشريف الجرجاني: ((هو عقد القلب على فعل شيء قبل ان يفعل من خير أو شر)) (٧٩).

كما وردت كلمة (الشر) كثيراً ي القرآن الكريم، منها قوله ﷻ: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (٨٠)، وقوله ﷻ : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨١)، وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٨٢).

والتنافر بين الضدّين (الخير والشر) واضح وجلي، لكنَّ الأديب الألبيري مزجهما ببعض، وصهرهما في كيان واحد، يعانق الشيء نقيضه، محقّقاً بذلك قدراً كافياً من الإئتلاف بين المتنافرات(٨٣).

فالمتنافران فيهما ما يوحي بالسعي الحثيث الى التسليم المطلق لله تعالى، في كلِّ الأحوال والأمور، فضلاً عن الحذر كل الحذر من الإغترار بالدنيا الفانية، فهما لايكادان يفترقان حتّى يلتقيا(٨٤).

ومن الشواهد التي قدَّمها الألبيري في ديوانه، موظّفاً ثنائية الخير والشر،ما قاله بعد أن بلغ الستين عاماً، مذكّراً نفسه بفعل الخيرات، واجتناب الشرّ :

فَـأجزي الخَـيرَ إن قَـدّمتُ خَـيراً وشَراً إن جُزيتُ على اجتراحي(٨٥)

إنّ القيمة الفنية للنصّ الشعري المتقدم تتجلى من التنافر الحاصل بين دوالّه: (الخير، والشر)، فخلف هذا التنافر الظاهر، نجد أنَّ هنالك تعانقاً خفيّاً بين الإيقاع والدالّة في النصّ، كما أنّ هذه الثنائية قد حملت من خلال مجيئها قيماً فكرية، لم يكن بالإمكان إيصالها بسواها، إذ فيها حثٌ المتلقي على فعل الخير دوماً وأبداً؛ لأنَّه جزاء الخير يلاقيه خيراً، ويذكّر المتلقي باجتناب فعل الشر، الذي مؤداه أن يلاقي الشر، مقتبساً المعنى من النصّ القرآني، من الآية الكريمة، في قوله ﷻ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (٨٦).

وكذا قوله بعد أن بلغ منه الكِبَرُ عتيّاً، في وصف حالة الشعور بالحبّ، متعجّباً من نَهب الفؤاد بأيدي النساء:

أيُّ خَـــيرٍ لِوالـــدٍ في بَنِيـــهِ وَهـوَ عَـنهُم يَفِـرُّ يَـومَ الجَـزاءِ(٨٧)

يجد الباحث في هذا النصّ المتقدم استحضاراً وتوظيفاً قرآنياً مميّزاً، تمّ عبر الامتزاج بين النصّ القرآني للآيات الشريفه من قوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ ﴾ (٨٨)، بسياق النصّ المتقدم، وحمل المضمون الدلالي له، إذ أنَّ النصّ القرآني يؤكد حقيقة يوم الجزاء، وفرار المرء من اخيه، وامّه وأبيه، وزوجته وبنيه، وهذا ما يناسب سياق الوعظ والإرشاد من الآية المتقدمة، التي عكسها الألبيري في نصّه الشعري المتقدم، ومزجها مع النصّ لفظاً ودلالة، ممّا يضفي لنصّه الطابع الديني، الذي يريد من ضوءه ايصال فكرته للمتلقي؛ لأجل الوعظ، فحقّق بذلك الغاية المنشودة.

يظهر للباحث في هذا النصّ براعة الشاعر، ومقدرته في تشرّب المرجعية القرآنية، والأحاديث الشريفة، وامتزاجهما بالنصّ، وجعلهما منسجمان مع النصّ، فجاء الإقتباس هنا في سياق الوعظ والتنبّه للنفس، التي هي أعدى أعداء الإنسان، كما بينها الحديث الشريف، الوارد عن النبي ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) (٨٩)، فجاء التفاعل مع النصّ القرآني، في الآية الكريمة من قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ (٩٠).

وبذلك استطاع الشاعر أن يفجّر الطاقات التعبيرية من تلكم النصوص، ليجعل المتلقي متيقّناً تمام التيقّن بقدسية تلك النصوص، من شعوره برجوعها الى نصوص قرآنية وأحاديث شريفة مقدّسة، كذلك يُحمِّل المتلقي على استكناه المخزون الثقافي والقرآني(٩١).

٥: النور والظلام:

النور لغةً: يقول ابن منظور: ((فِي أَسماء اللَّه تَعَالَى :النُّورُ؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: هُوَ الَّذِي يُبْصِرُ بِنُورِهِ ذُو العَمَايَة ويَرْشُدُ بِهُدَاهُ ذُو الغَوايَة، وَقِيلَ: هُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي بِهِ كُلُّ ظُهُورٍ، وَالظَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ المُظْهِر لِغَيْرِهِ يُسَمَّى نُورًا .قَالَ أَبو مَنْصُورٍ :والنُّور مِنْ صِفَاتِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، والنُّورُ :الضِّيَاءُ .وَالنُّورُ :ضِدُّ الظُّلْمَةِ، وَفِي الْمُحْكَمِ :النُّور الضَّوْءُ، أَيًّا كَانَ، وَقِيلَ: هُوَ شُعَاعُهُ وَسُطُوعُهُ، وَالْجَمْعُ أَنْوارٌ ونِيرانٌ)) (٩٢).

أمّا النور إصطلاحاً: كما عرّفه إسماعيل حقي: ((هو الذي يُبْصِرُ بنوره ذو العَمَايَة ويَرْشُدُ بهداه ذو الغَوايَة، وقيل: هو الظاهر الذي به كل ظهور، والظاهر في نفسه المُظْهِر لغيره يسمى نوراً.)) (٩٣).

فقد ورد في القرآن الكريم لفظ النور مراراً وتكراراً، منها قوله ﷻ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾(٩٤)، وقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾(٩٥)، وقوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٩٦).

أمّا الظلام لغةً : فيقول ابن منظور: ((مِنَ الظُّلْمَة، بِضَمِّ اللَّام: ذَهَابُ النُّورِ، وَهِيَ خِلَافُ النُّورِ، وجمعُ الظُّلْمة ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلَماتٌ وظُلْمات، قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: ظُلَمٌ جَمْعُ ظُلْمَة، بِإِسْكَانِ اللَّام، فأما ظُلُمة فَإِنَّمَا يَكُونُ جَمْعُهَا بالأَلف وَالتَّاء، وَتُجْمَعُ الظُّلْمة ظُلَماً وظُلُمات. ابْنُ سِيدَهْ: وَقِيلَ الظَّلام أَوّل اللَّيْلِ وَإِنْ كَانَ مُقْمِراً، يُقَالُ: أَتيته ظَلاماً أَيْ لَيْلًا؛

قَالَ سِيبَوَيْهِ: لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا ظَرْفًا. وَأَتَيْتُهُ مَعَ الظَّلام أَيْ عِنْدِ اللَّيْلِ. وليلةٌ ظَلْمةٌ، عَلَى طرحِ الزَّائد، وظَلْماءُ كلْتَاهُمَا: شَدِيدَةُ الظُّلْمة))[٩٧].

والظلام إصطلاحاً : كما عرّفه عبد العزيز عتيق : ((كل ما هو جهل يجعل صاحبها في حكم من يمشي في الظلمة، فلا يهتدي إلى الطريق، و لا يفصل الشيء من غيره، شُبِّهَت بالظُلمة، و لزم على عكس ذلك أن تشبّه السنة و الهدى و كلّ ما هو علم بالنور)) [٩٨].

فقد وردت لفظة (الظلام) أو مشتقاتها في آي الذكر الحكيم بكثرة، خصوصاً في موارد التشبيه بين (العلم والنور) بـ (النور والظلام)، ومن تلكم الآيات الشريفة قوله ﷻ: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[٩٩]، وكذا قوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[١٠٠]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾[١٠١].

ومن الشواهد التي وظّف فيها الألبيري ثنائية النور والظلام في ديوانه، ما قاله في وصفه لنكران الدنيا ودفعها براحتيه، وبصقه في وجهها؛ لأجل إنزياح ظلام جهله، وانبلاج نور هداه:

فأســـــألهُ وألطِفُـــــهُ عَســـــــاهُ ... سيأسُـــوا مـــا بِـــديني مِـــن جِـــراحِ
ويَجلو ما دَجا مِن لَيلِ جَهلـــي ... بِنُـــورِ هُـــدى كَمُنـــبَلِجِ الصَّبـــــاحِ
فأبصُـــــــقُ في مُحيّا أُمِّ دَفرٍ [١٠٢] ... وأهجُرُها وأدفَعُها براحـــي[١٠٣]

ففي النصّ الشعري المتقدم مجازان لغويان في كلمتي (ليل، ونور) قصد بالأولى (الضلال)، و بالثانية (الهدى و الإيمان). فقد استعير (الليل) للضلال، لعلاقة المشابهة بينهما في عدم اهتداء صاحبهما، كذلك استعير (النور) للهدى و الإيمان؛ لعلاقة المشابهة بينهما في الهداية، القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي في كلا المجازين قرينة حالية، تفهم من سياق الكلام[١٠٤]، و أصل ذلك قوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[١٠٥].

((ويقابل استعارة (الليل) استعارة (النور)، التي تصور طبيعة الإيمان، وفعله الباني للحياة؛ لأنَّه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة)) [١٠٦]، والليل والظلام دلالته أرضية، بينما النور دلالته إلهية[١٠٧].

وكذا قوله رحمه الله في خراب إلبيرة[١٠٨]:

لَعَهدي بِها مُبيضّة الليلِ فاغتَدَت وأيّامُها قَد سَوَّدَتها النَوائِـــبُ

وما كانَ فيها غيرُ بُشرى وأنعُـمٍ فَلم يَبقَ فيها الآن إلّا المصائِبُ[١٠٩]

يمكن أن يستشفَّ الباحث من مضمون النصِّ المتقدم تجسد الظلم الذي لحق بالبيرة، موطن الشاعر الألبيري، وكيف حوَّلت نوائب الدهر أيامها البيض الى سود قاتمة، بينما كانت لياليها بيض، موظّفاً التشبيه في ذلك، من أنَّ عهدها كانت مفعمة بالنشاط العلمي، والدروس، والكتاتيب، ومحافل العلم، وما إن حصلت الهجمة البربرية، فحلَّ فيها الدمار والخراب.

والتشبيه وسيلة أسلوبية، يستعملها الأديب لتقوية المعنى، وتعميق الدلالة، وهي جزء من تكوين التجربة الشعورية عند الأديب، بل هي ملمح من ملامح العمل الفنّيّ الأدبي[١١٠]، ممّا أكسب النصّ دلالات إيحائية، يفهم منها المتلقي حالة الدمار والخراب التي حلَّت بتلك البلدة.

هوامش البحث

١) ينظر: تاريخ التعليم في الأندلس، د. محمد عبد الحميد عيسى: ١: ٣٦٠.
٢) سورة النمل، آية ١٥.
٣) سورة الزمر، آية ٩.
٤) سورة الأنعام، آية ١٢٢.
٥) سنن ابي داوود: ٤: ٣٠٣: ٥٠١٢.
٦) نهج البلاغة: الحكمة ١٠٧.
٧) سورة يوسف، آية ٥٥.
٨) كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي: ٢: ١٥٢.
٩) طريق الهداية، محمد يسري: ١: ١٠٧.
١٠) القواعد الشريفة: محمد شفيع الجابلقي: ٢: ٤٣٩.

١١) العين: ٣: ٣٩٠.
١٢) أساليب بلاغية، احمد مطلوب: ١: ٦٣.
١٣) سورة النساء، آية ١٧.
١٤) غريب الحديث، ابن الجوزي: ١: ١٨٣.
١٥) الكافي، الشيخ الكليني: ١، ٢١.
١٦) إشارة الى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)، الذكرى، الشهيد الأول، ١، ٧٦.
١٧) كنية المخاطب المباشر في القصيدة، وقد نبّه اليه مرّة أخرى في القصيدة، وجعل الحديث اليه وسيلة لبسط آرآئه ومواقفه.
١٨) ديوان الألبيري: ٢١.
١٩) ينظر: شرح المشكل من شعر المتنبي، ابن سيده، ١، ٨.
٢٠) ديوان الألبيري: ٢٢.
٢١) ينظر: الصحيفة السجادية دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، حسن غانم فضالة الجنابي: ١٣٦.
٢٢) سورة البقرة، ٢٦٩.
٢٣) روضة المتقين، محمد تقي المجلسي: ١٣: ٣.
٢٤) لسان العرب: ١٤: ٢١١.
٢٥) ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني: ٤٢١.
٢٦) ينظر: محراب التقوى والبصيرة، عيسى أحمد قاسم: ١٢: ٣٧٥.
٢٧) كشّاف إصطلاحات العلوم والفنون: ١: ٧٢٣.
٢٨) لسان العرب: ٢: ٩٠.
٢٩) إحياء علوم الدين، ابي حامد الغزّالي: ٤: ٤٩٤.
٣٠) سورة الحديد، آية ١٧.
٣١) سورة الفرقان، آية ٤٩.
٣٢) سورة إبراهيم، آية ١٧.
٣٣) كشاف إصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي: ٢: ١٦٦٩.
٣٤) ديوان الألبيري: ١٩.
٣٥) ديوان الألبيري: ٢٤.

٣٦) سورة النساء، آية ٧.
٣٧) الصحيفة السجادية دراسة أسلوبية، حسن غانم فضالة الجنابي: ١٣٦.
٣٨) سورة النمل، آية ١٤.
٣٩) ينظر: في أسلوبية النثر العربي: ٢٣٧.
٤٠) ينظر: في أسلوبية النثر العربي: ٢٤٠.
٤١) سورة لقمان، آية ٣٤.
٤٢) سورة العنكبوت، آية ٦٤.
٤٣) التذكرة بأحكام الموتى وأمور الآخرة، القرطبي: ١١١.
٤٤) لسان العرب: ١٥: ١٣٥- ١٣٦.
٤٥) سورة فاطر، آية ١٥.
٤٦) سورة الحج، آية ٦٤.
٤٧) لسان العرب: ٥: ٦٠.
٤٨) سورة التوبة، آية ٦٠.
٤٩) سورة البقرة، آية ٢٦٨.
٥٠) سورة آل عمران، ١٨١.
٥١) ديوان الألبيري:٢٢- ٢٣.
٥٢) الأمالي، الشيخ الطوسي: ١: ٥٦.
٥٣) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني: ٦: ٢١.
٥٤) لسان العرب: ٨: ٢٤٢.
٥٥) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب: ١: ٥٢١.
٥٦) سورة التوبة، آية ٧٩.
٥٧) سورة البقرة، آية ٨٤.
٥٨) سورة النساء، آية ٥٩.
٥٩) لسان العرب: ١٥: ٦٧.
٦٠) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب: ١: ٤١١.
٦١) سورة الزمر، آية ١٢.
٦٢) سورة البقرة، آية ٦١.
٦٣) سورة النساء، آية ١٤.

٦٤) سورة الكهف، آية ٦٩.
٦٥) ديوان الألبيري: ٢٦- ٢٧.
٦٦) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني ، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية . وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة ، توفي ١٣ ق. هـ. الأعلام، خير الله الزركلي، ٣: ٥٢.
٦٧) تهذيب اللغة، محمد بن احمد الأزهري: ٧: ١١٤.
٦٨) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٢، ٢٨٥.
٦٩) ديوان الألبيري: ٤٥.
٧٠) سورة طه، آية ١٠٦.
٧١) ينظر: التناصّ في شعر ابي علاء المعريّ، ابراهيم مصطفى محمد الدهون: ١٠٦.
٧٢) ينظر: خصائص الأُسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي: ١٢١.
٧٣) لسان العرب: ٤: ٢٦٤.
٧٤) التعريفات، الجرجاني: ١: ١١٣.
٧٥) سورة النور، آية ٣٣.
٧٦) سورة البقرة، آية ١٨٠.
٧٧) سورة البقرة، آية ٢٧١.
٧٨) العين: ٦: ٢١٦.
٧٩) التعريفات: ١: ١١٣.
٨٠) سورة يوسف، آية ٧٧.
٨١) سورة البقرة، آية ٢١٦.
٨٢) سورة الأنفال، آية ٢٢.
٨٣) ينظر: التائية الكبرى لابن الفارض، هشيار زكي حسن احمد: ٥٥.
٨٤) ينظر: خصائص الأُسلوب في الشوقيات: ١٢١.
٨٥) ديوان الألبيري: ٤٤.
٨٦) سورة الزلزلة، الآية ٧.
٨٧) ديوان الألبيري: ٨٥.
٨٨) سورة عبس، الأيات: ٣٣ – ٣٧.
٨٩) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٧٠: ٦٤.

٩٠) سورة النساء، آية ٧١.
٩١) ينظر: في أُسلوبية النثر العربي: ٢٣٤.
٩٢) لسان العرب: ٥: ١٢٠.
٩٣) روح البيان، إسماعيل حقي: ٦: ١٥٢.
٩٤) سورة النور، آية ٣٥.
٩٥) سورة يونس، آية ٥.
٩٦) سورة البقرة، آية ٢٥٧.
٩٧) لسان العرب: ١٢: ٣٧٧ – ٣٧٨.
٩٨) علم البيان، عبد العزيز عتيق: ١: ٨٤.
٩٩) سورة البقرة، آية ١٧.
١٠٠) سورة البقرة، ٢٥٧.
١٠١) سورة البقرة، آية ١٩.
١٠٢) وأُمُّ دَفْرٍ :مِنْ أَسماء الدَّوَاهِي . ودَفارِ وأُمُّ دَفارِ وأُمُّ دَفْرٍ، كُلُّهُ: الدُّنْيَا .ودَفْراً دَافِراً لِمَا يَجِيءُ بِهِ فُلَانٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ أَي نَتْناً. لسان العرب: ٤: ٢٨٩.
١٠٣) ديوان الألبيري: ٤٣.
١٠٤) ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق: ١: ١٧٧.
١٠٥) سورة البقرة، آية ٢٥٧.
١٠٦) الإستعارة في القرآن الكريم، أنماطها ودلالاتها البلاغية، أحمد فتحي رمضان الحياتي: ٥٧.
١٠٧) منازل الرؤية، سمير شريف، ٣٢١.
١٠٨) إلبيرة مركز كورة إلبيرة، ثمَّ خربت في الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ هـ، فَعُمِّرت غرناطة (التي كانت صغيرة ومغمورة)، ونهضت في مقام إلبيرة، وهي موطن المصنف رحمه الله، وهي بلدٌ بالأَنْدَلُس، و يقال :اللِّبِيرَةُ ، منها: مَكِّيٌّ بنُ صَفْوانَ الإِلْبِيرِيُّ ، و يقال :اللِّبِيرِيُّ ، و يقال :البِيرِيُّ المحدِّثُ، مولَى بَنِي أُمَيَّةَ، مات سنةَ ٣٠٩. تاج العروس، مرتضى الزبيدي: ٦: ١٢٥.
١٠٩) ديوان الألبيري: ٧٤.
١١٠) ينظر: جماليات الأُسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، فايز الداية: ٩٤.

قائمة المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين، ابو حامد الغزّالي، تحقيق: عبد الحسن حافظ العراقي، تقديم: محمد خضير حسين، الناشر: دار الكتاب العربي، المكتبة العربية الكبرى، القاهرة، مصر، ١٩٧٣م.
٢. أساليب بلاغية الفصاحة، البلاغة، المعاني، د.احمد مطلوب الرفاعي، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
٣. الإستعارة في القرآن الكريم، أنماطها ودلالاتها البلاغية، أحمد فتحي رمضان الحياتي، ط١، ١٩٩٣م.
٤. بحار الأنوار، العلامة محمد تقي المجلسي، تحقيق: علي أكبر غفّاري، مؤسسة الوفاء للنشر والتوزيع، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٢هـ.
٥. تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، المؤلف احسان عباس، ط١، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٢.
٦. التائية الكبرى لإبن الفارض، دراسة أسلوبية، هشيار زكي حسين احمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢م.
٧. التعريفات، الجرجاني، حققه محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ٨١٦هـ - ١٤١٣ م .
٨. التناصّ في شعر ابي علاء المعريّ، د. ابراهيم مصطفى محمد الدهون، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٩. جماليات الاسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، د.فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.
١٠. خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد هادي الطرابلسي، الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦م.
١١. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٢. روضة المتقين، محمد تقي المجلسي ، تحقيق: حسين كرماني، قم المقدسة، ط١، ١٤٢٦هـ.
١٣. شرح المشكل من شعر المتنبي، ابن سيده، ١، ٨.
١٤. الصحيفة السجادية دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، حسن غانم فضالة الجنابي: ١٣٦.
١٥. علم البديع، عبد العزيز عتيق، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٦. في اسلوبية النثر العربي، د.كريمة المدني، دار الكتب، موزعون وناشرون، العراق، كربلاء، ٢٠١٧م.
١٧. القواعد الشريفة: الشيخ محمد شفيع الجابلقي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ايران، ١٤١٦هـ.
١٨. الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي اكبر غفاري، الناشر: دار الكتب الاسلامية، ط٣، ١٣٨٨هـ.
١٩. كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. ابراهيم السامرائي، الناشر: دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٢٠. كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق : د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦ م.
٢١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ابن منظور)، الناشر: دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٢٢. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.